صفحات من الذاكرة

أ. محمود جدة

أسير مقدسي محرر

أنا من أنا؟!

سؤال بدأ يطرح نفسه بداخلي بقوة منذ نعومة أظافري. كل يوم يمر علي كان أصعب من الذي قبله. أفكر وأفكر ولكن دون الوصول إلى نتيجة ما. يا ترى ما السبب؟!

في ذلك الوقت حين كنت تقريبًا في العاشرة من عمري ولربما أصغر من ذلك، كنت أسمع الناس يقولون هذا عربي وهذا إنكليزي وهذا أمريكي وذاك إفريقي، وما إلى ذلك من التسميات والتقسيمات القومية أو العرقية أو الدينية أو اللون أو الجنس وكل هذا التصنيفات. وكنت أسمع بعض الناس يقولون لي يا عبد يا أسود.!! أنظر إليهم أحاول أن أعرف أو أفهم ما يقولون ولا أجد جوابًا. أقارن بيني وبينهم ولا أجد أي فارق جوهري. بل على العكس كنت أرى نفسي في بعض المواقف أفضل منهم، خاصة عندما علمت أن أول من نادى للصلاة في الإسلام كان أسمر اللون، وهو بلال الحبشي. وكذلك عندما علمت أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة واحتموا بها والحبشة ذات بشرة سمراء. وأحيانًا أراهم أفضل

مني، خاصة في مستوى المعيشة لأننا كنا شديدي الفقر وأحيانًا بالكاد نحصل على وجبة واحدة خلال اليوم. وعندما أنظر إلى نفسي أجد أنني خليط من أنواع عدة. فأبي من أصل إفريقي ذو بشرة سوداء، جاء إلى هذه البلاد من دولة تشاد والتي كانت تحت الاستعمار الفرنسي لذا كان بحوزته جواز سفر فرنسي.

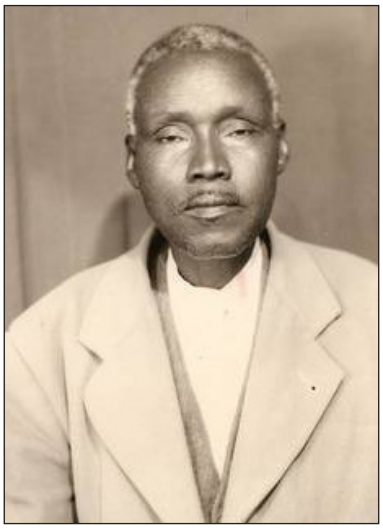

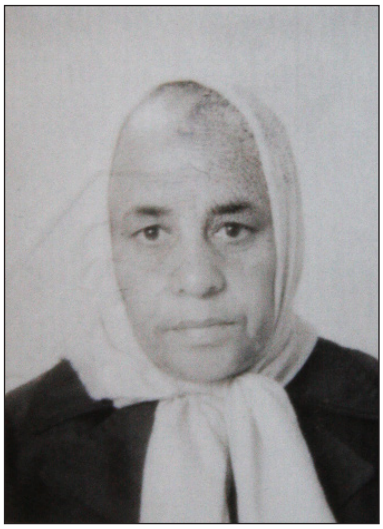

الوالد الحاج آدم جدة والوالدة يسرى فالح الشطي

وأمي أردنية ذات بشرة بيضاء ونعيش جميعًا في مدينة القدس، والتي تعتبر فلسطينية ولكنها تحت الحكم الأردني. أسأل نفسي: هل يعني لأن أبي إفريقي أنا إفريقي أيضًا. ولكن ماذا بشأن أمي؟ فإذا اعتبرت نفسي إفريقيًّا أشعر أنني أظلم أمي. وكذلك إذا قلت عن نفسي أردنيًّا أو فلسطينيًّا فبذلك أظلم أبي. فأنا أنتمي إلى كليهما. الأمر الصعب الذي كنت أواجهه هو أنني حتى الآن لا أعرف من كان أحن علي من الآخر، أهي أمي أم أبي؟ مرة أخرى إذا قلت إنني إفريقي فسأظلم أمي، وإذا قلت إنني عربي فسأظلم أبي. وبقي هذا النقاش يدور بداخلي لسنوات عدة ولم أجد الحل الأمثل للخروج من هذا المأزق.

بعض الآباء الأفارقة مع أبنائهم

المأزق الآخر كان الانتماء الديني. فأنا مسلم لكون أبي وأمي مسلمين، أم أنني مسيحي لأنني أتعلم في مدرسة مسيحية، وهي كلية الفرير الواقعة بالقرب من الباب الجديد في القدس العتيقة. كنت أسمع أيضًا أن هذا مسلم وذاك مسيحي وآخر يهودي وبوذي الخ... فبحكم العادات والتقاليد يجب أن أكون مسلمًا. لأنني متحدر من أبوين مسلمين. ولكن لماذا لا أكون مسيحيًّا؟ فأنا أعيش أيضًا بين المسيحيين من خلال وجودي في مدرسة الفرير ولم أجد فرقًا بينهم وبين المسلمين من حيث المعاملة وحسن الأخلاق. وأيضًا لو أن المسيحيين سيئون لماذا أرسلني والدي لتلقي العلم في مدارسهم وهو المسلم المتدين، وكان يعتبر من المتبحرين في علوم الدين. فهل يمكن أن أكون مسلمًا ومسيحيًّا في نفس الوقت. فأنا أعيش بين الطرفين وأحبهم ويحبونني.

في مدرسة الفرير

ولاح لي مأزق آخر هو فلاح أم مدني أم بدوي أم لاجئ؟ فكنت أسمع من الناس وأحيانًا على شكل تهكم، عبارة «بدوي متخلف يعيش في البراري وبين الحيوانات». و«فلاح بجم وما بيفهم» وكثيرًا من الأقاويل المهينة. ولكن كان لي شرف أن كل ذلك في آن واحد. فجربت حياة المدينة لأني أعيش فيها. وكذلك خبرت حياة الفلاحين لأن خالتي فلاحة تعيش في قرية الساوية قضاء نابلس. وكذلك عشت حياة البداوة لأن خالتي الثانية بدوية تعيش في الغور في قرية دامية وفي منطقة تسمى غور أبو عبيدة. وكنا في كل عام على الأقل نلتقي جميعًا مرة واحدة. فترانا جميعنا أبناء المدن والقرى والبوادي نعيش منسجمين ويكمل كل منا الآخر. فعندما نكون في الساوية بلد الفلاحين نتعرف على عاداتهم وتقاليدهم والعلاقات فيما بينهم، فنجد أنها في منتهى الجمال. وكذلك عندما نذهب إلى البادية نتعرف على حياة البدو والعادات الطيبة جدًّا فيما بينهم والتي لم نكن نراها بين أبناء المدينة. وكذلك نحن في المدينة كنا نقدم لهم خدمات مختلفة لم تكن موجودة لديهم مثل الصحة على سبيل المثال. والفلاحون يقدمون لنا الخضار والفواكه والمأكولات الشهية مثل خبز الطابون والمسخن وشوربة الفريكة. وعندما نكون عند البدو أستمتع بحياة البراري والألبان الطازجة والمنسف. كنا نتجمع حول جدتي وهي تحلب الغنم وتضع حليبه في السعن وتخضه. وننتظر بشغف حتى نحصل على كوب من لبن المخيض. نشرب ونستمتع به. وما زلت أشعر بطعمه حتى اليوم.

من اليمين خالتي عليا البدوية وفي الوسط أمي المدنية وإلى اليسار خالتي صبحة الفلاحة

وكذلك عشت حياة اللجوء في الخيام في عمان بعد طردنا في عام النكبة.

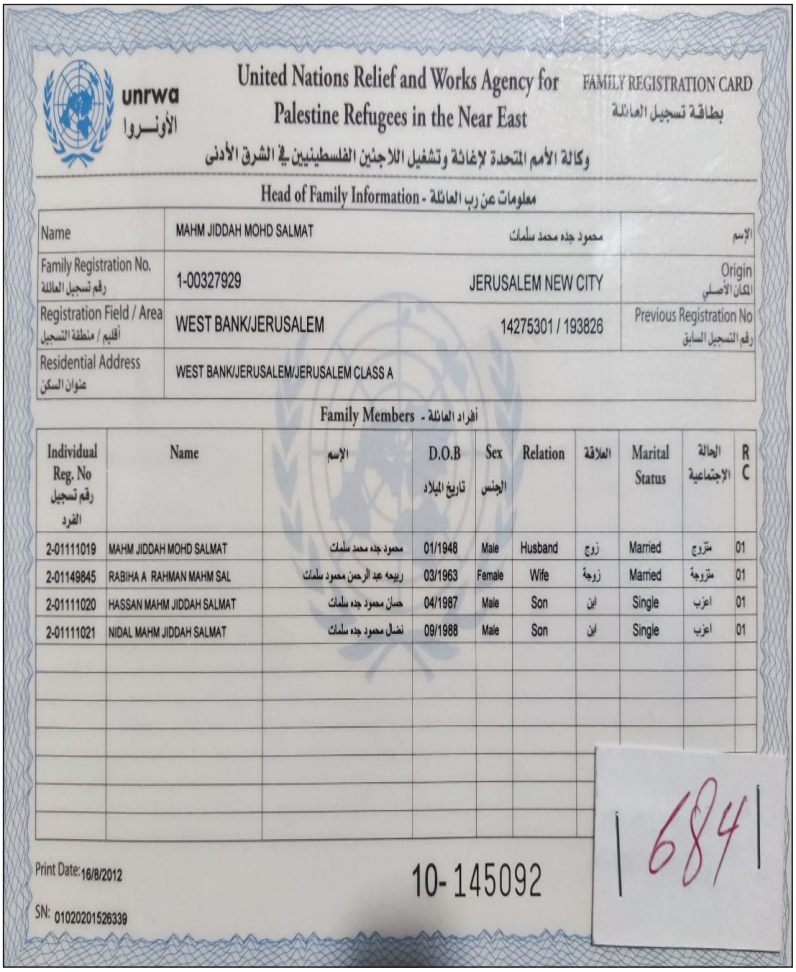

unrwa
الأونروا

United Nations Relief and Works Agency for Palestine Refugees in the Near East
وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى

FAMILY REGISTRATION CARD
بطاقة تسجيل العائلة

Head of Family Information - معلومات عن رب العائلة

Name	MAHM JIDDAH MOHD SALMAT محمود جده محمد سلمات	الإسم
Family Registration No. رقم تسجيل العائلة	1-00327929 JERUSALEM NEW CITY	Origin المكان الاصلي
Registration Field / Area أقليم / منطقة التسجيل	WEST BANK/JERUSALEM 14275301 / 193826	Previous Registration No رقم التسجيل السابق
Residential Address عنوان السكن	WEST BANK/JERUSALEM/JERUSALEM CLASS A	

Family Members - أفراد العائلة

Individual Reg. No رقم تسجيل الفرد	Name	الإسم	D.O.B تاريخ الميلاد	Sex الجنس	Relation	العلاقة	Marital Status	الحالة الإجتماعية	RC
2-01111019	MAHM JIDDAH MOHD SALMAT	محمود جده محمد سلمات	01/1948	Male	Husband	زوج	Married	متزوج	01
2-01149845	RABIHA A RAHMAN MAHM SAL	ربيحه عبد الرحمن محمود سلمات	03/1963	Female	Wife	زوجة	Married	متزوجة	01
2-01111020	HASSAN MAHM JIDDAH SALMAT	حسان محمود جده سلمات	04/1987	Male	Son	ابن	Single	اعزب	01
2-01111021	NIDAL MAHM JIDDAH SALMAT	نضال محمود جده سلمات	09/1988	Male	Son	ابن	Single	اعزب	01

Print Date: 16/8/2012

SN: 01020201526339

10-145092

684

بطاقة لاجئ

وعلى هذا الأســاس كان الســؤال دائمًا: هــل أنا مدني أم بــدوي أم فلاح أم لاجئ؟؟ تخيلوا لو أن الفلاحين جميعهم جاؤوا إلى المدينة ليعيشوا فيها، فكيف سنحصل على الخضار والفواكه؟ وكذلك تخيلوا لو جاء البدو جميعهم ليســكنوا في المدينة، فمن أين سنحصل على اللحــوم والألبان وغير ذلك مــن الثروة الحيوانية. وكذلك لو أن أهــل المدن تركوا المدينة ليعيشوا في القرى والبوادي، فمن أين سنحصل على التعليم والصحة وغير ذلك من الأمور العصرية؟؟

وهناك تساؤلات كثيرة كانت تخطر على بالي بين الحين والآخر. وفي النهاية توصلت إلى استنتاج: لا أحد اختار من سيكون. فجميعنا جئنا إلى هذه الدنيا دون إرادتنا ولم نسأل فيما إذا أردنا أن نأتي إلى هذه الدنيا أم لا. لم نختَرْ أبانا أو أمنا، وكذلك لم نختَرْ جنسنا ذكرًا أم أنثى. لم نختَر الدين فأنا مسلم لأن أبي من المسلمين وذاك مسيحي لأن والديه مسيحيين وهكذا. لم نختَر لوننا سواء كان أبيض أم أسود أم أحمر أم أصفر أم غير ذلك. لم نختر قوميتنا التي نتقاتل ونقتل بعضنا بعضًا بسببها. من منا جاء إلى هذه الدنيا ومعه ورق إثبات ملكية لهذا البلد أو ذاك؟ جئنا إلى هذه الدنيا دون إرادتنا. سُحبنا من أرحام أمهاتنا سحبًا وجئنا إلى هذه الدنيا عراة. وكذلك سنترك هذه الدنيا دون أن يسألنا أحد ما إذا كنا نرغب بمغادرتها أم لا. ولن نختار الوقت أو المكان الذي سنموت فيه. فكما جئنا عراة سنغادر هذه الدنيا عراة أيضًا، بل وفي أحسن الأحوال سنأخذ معنا قطعة بيضاء من القماش (الكفن). فقد جئنا إلى هذه الأرض متساوين وسنغادرها متساوين، فلماذا لا نعيش أيضًا متساوين؟ فكل حسب طاقته ولكل حسب حاجته. إذا كان لا بد من تمييز بين البشر، بين هذا الإنسان وذاك، فيجب أن يكون هذا التمييز قائمًا على ما يقدمه الفرد لمجتمعه وللعالم من أمور إنسانية إيجابية تساعد على تطوير الحياة وجعلها أسهل وأفضل للناس جميعًا.

وما عزز هذا الشعور وهذه القناعة هو التجربة التي مررت بها في حياتي. فأولًا فترة الاعتقال التي أمضيتها في سجون الاحتلال. كانت فرصة للتفكير بهدوء إلى حد ما بكل هذه المآسي التي يعيشها العالم. الحروب والقتل والتدمير وما إلى ذلك. لماذا؟ وكانت فرصة أيضًا للاطلاع على الفلسفات المختلفة وتجارب الشعوب هنا وهناك. من المستفيد من كل هذه النزاعات والحروب. فئة قليلة من الناس الذين لا يفكرون إلا بمصالحهم الذاتية ويسعون إلى زيادة نفوذهم وسيطرتهم على مقدرات الشعوب المقهورة. كذلك التجربة التي مررت بها في سفرية إلى مدينة ستراسبورغ الفرنسية، من خلال المشاركة في مؤتمر لحقوق الإنسان، كان لها تأثير بالغ أيضًا.

فلقد اجتمعنا حولي 700 شخص من أكثر من مائة دولة من مختلف أنحاء العالم. في البداية

وجدت أن هناك فلسطينيين من بين المشـــاركين جاؤوا من عدة دول عربية وأجنبية. عقدنا اجتماعًا خاصًّا للفلســـطينيين لنتعرف على بعضنا البعض وظـــروف حياتنا وطموحاتنا وما إلى ذلك. بعدها عقد اجتماع للعرب وحضرت الاجتماع كوني فلســـطينيًّا والفلسطينيون هم عـــرب. بعد ذلك عقد اجتماع للأفارقة ولكون أبي إفريقيًّا حضرت اجتماع الأفارقة لأتعرف على البلاد التي جاء منها أبي، وكذلك لأنقل لهم عن حياتنا في فلسطين. ومن ثم عقد اجتماع لبلدان العـــالم الثالث وحضرت الاجتماع كوني من بلدان العالم الثالث. ومن ثم اجتماع آخر لشـــعوب تحت الاحتلال وأنا تحت الاحتلال. ثم اجتماع آخر للاشتراكيين وأنا كاشتراكي حضرت الاجتماع الذي ضم شبابًا من كل القارات. وللحقيقة كل هذه الاجتماعات كان لها هدف واحد، وهو كيف يجب أن نحيا كبشر نتمتع بالحقوق ونقوم بواجباتنا بعيدًا عن القهر والاستعباد والاستغلال. لنا الحق في الحياة والصحة والعلم والعمل والكرامة إلى آخره من هذه التعبيرات. إضافة إلى ذلك اســـتطعت أن أبني علاقات يمكـــن أن أقول عنها عائلية. شـــكّلنا مجموعة أحدها أمريكي من الولايات المتحدة وآخر مـــن فنلندا وآخر من بريطانيا ومن إســـبانيا ومن آيســـلندا ومن كينيا وفتاة هندية من بومباي وأخرى من تشيلي وأخرى مـــن الفيليبين وأخرى من تركيا. كنا نجتمع كل يوم ونتبادل الأفكار والآراء، وكنا في كامل الانسجام، على الرغم من أننا من شـــعوب مختلفة ومن دول مختلفة ومن قارات مختلفة. ولم تشكل اللغة عائقًا في التفاهم بيننا على الرغم من أن البعض منا لم يتكلم سوى لغته الخاصة. فماذا يعني ذلك؟

فهنا أقول، هل أنا فلسطيني لأنني أعيش في فلسطين أم أقول إنني أردني لأن أمي أردنية؟ أم أقول إنني إفريقي لأن أبي من إفريقيا، أم فرنسي لأن أبي يحمل الجنسية الفرنسية، أم أقول إنني مدني لأنني أعيش في مدينة القدس أم فلاح أو بدوي لأنني أحببت نمط حياة الطرفين أيضًا. هل أنا مسلم أم مسيحي لأنني عشت وأعيش مع وبين المسيحيين وعلاقاتنا كلها محبة واحترام ولم أشعر بأي فارق يذكر. أم أنا من دول العالم الثالث أم شعب تحت الاحتلال. أم هل أنا أوروبي أم آسيوي أم أمريكي، فلقد جربت المعيشة معهم ولم تكن بيننا خلافات تذكر

بل على العكس كان بيننا انسجام رائع جدًّا.

والآن مـــا رأيكم؟ أنا من أنا؟ هل عندكم إجابة؟ لا تقلقـــوا عندي الجواب. بل أود أن أسمع رأيكم.

أما إذا أردتم معرفة من أنا؟ فأنا أقول لكم:

أنا إنســـان أعيش في القدس من البلدة العتيقة والعالم كلـــه، ودون حدود، وطني وأبناء البشرية جميعهم عائلتي. فهذا هو أنا...

فهل يمكـــن أن نتخيل القدس دون البلـــدة العتيقة؟ وهل يمكن تخيل فلســـطين دون القدس؟ وهل يمكن تخيل بلاد الشـــام دون فلسطين؟ وهل يمكن تخيل الوطن العربي دون بلاد الشـــام؟ وهل يمكن تخيل الشرق الأوسط دون الوطن العربي؟ وهل يمكن تخيل العالم دون الشرق الأوسط؟ وهل يمكن تخيل الكون دون الكرة الأرضية؟

وعلى هذا الأســـاس، إن التربية القائمة على الأسس السليمة هي الحجر الأساس لضمان مســـتقبل أفضل لأجيالنا القادمة. فكفانا حروب وتشريد وقتـــل ودوس على الكرامة. لذا أقول يجـــب أن نعتمد في حياتنا على قوة الثقافة وليس على ثقافة القوة. وغير ذلك ســـنبقى نتقاتل ونقتل بعضنا بعضًا إلى ما لا نهاية. من هم ضحايا كل هذه النزاعات ســـوى الفقراء والمســـاكين؟؟ أما الزعماء والرأسماليين عند الضرورة يســـتقلون طائرتهم ويرحلون إلى أي مكان آخر في العالم ويعيشـــون حياة كلها ترفيه بترفيه. لمـــاذا لا نتنافس في القضاء على الفقر والجهل والمرض. لماذا لا نتنافس على المحافظة على مقدرات الشـــعوب ومواردها الطبيعية وحفظها لأجيال المســـتقبل؟ لماذا لا نتنافس في ميادين الرياضة، فهناك ميادين كثيرة يمكن أن نتنافس من خلالها بعيدًا عن الحـــروب الإجرامية والقتل. أذكر أن أبي قال لي في يوم من الأيام، إذا كنت في موقع أن تقتل إنســـانًا أو تهدم الكعبة التي هي أقدس مكان للمسلمين في العالم، اهدم الكعبة ولا تقتل. إذا هدمت الكعبة يمكن إعادة بنائها وبشكل أفضل مما كانت

عليه. أما إذا قتلت إنســانًا، فكيف يمكن أن نعيده للحياة خاصة إذا كان بريئًا. **فالإنسان هو أغلى قيمة في الوجود!**

وأخيرًا في الحادي والعشرين من شهر حزيران 2012 تحققت زيارتي إلى عمان، والتي كنت قد قررت زيارتها في نفس الشــهر الذي تم فيه احتلال باقي الأراضي الفلسطينية على أيدي القوات الصهيونية من عام 1967، أي تمامًا بعد خمســة وأربعين عامًا بالتمام والكمال. ويا لها من زيارة مليئة بالمشاعر المتناقضة ما بين دموع الفرح والسعادة ودموع الحزن والتعاسة.

ففــي يوم الجمعة 15 حزيران 2012 تلقيت مكالمة هاتفية من أختي هالة تخبرني فيها بأنها نوت هي وأخواتي الســفر إلى عمان من أجل المشــاركة في حفل تخرج لينا، ابنة أخي عبد الله (أبو طلال)، من الجامعة في الاثنين القادم. وســألتني إذا مــا كنت أرغب بشيء ما فأجبتها شــكرًا جزيلًا تروحوا وترجعوا بالسلامة. وانتهت المكالمة. وفيما بعد فكرت لماذا لا أحاول الســفر إلى عمان؟ وإذا حاولت فهل ســأنجح؟ لأنه جرت العــادة أن يتم منعنا من مغادرة الأراضي المحتلة أو الدخول إلى الأردن. فكيف ذلك؟

ففي عام 1967، عندما دخلنا في العطلة الصيفية المدرســية، قررت الســفر إلى عمان من أجل زيارة الأهل والأقارب، إلا أن وقوع الأراضي الفلســطينية تحت الاحتلال الإسرائيلي في حزيران 1967 حال دون تحقيق هذه الزيارة. ففي البداية، وتحديدًا في شــهر أيلول 1967 ساهمت بتشــكيل أول اتحاد طلبة تحت الاحتلال. كان ذلك بسبب محاولة الاحتلال فرض المنهــاج الإسرائيلي علينا، تحدثنا مع الطلبة وأولياء الأمور والأســاتذة، رفضنا ذلك وتمت مقاطعــة التعليم وفق المنهاج الإسرائيلي. بعدها انضممت إلى العمل الفدائي، حيث نفذت المجموعــات التي انتميت إليهــا عمليات مميزة في الخليل والقدس وتــل أبيب. **واعتقلت وأمضيــت في المعتقل مدة ســبعة عشر عامًا متواصلــة**. وعندما أُفرج عنــا في عملية تبادل الأسرى في العشرين من شــهر أيار عام 1985 فيما عرف بعملية الجليل، أصدرت سلطات الاحتلال أمرًا يمنعنا من مغادرة البلاد تحت ذريعة الأمن.

الآن، بعد مرور هذه الفترة الطويلة لم لا أحاول؟ وفعلًا اتخذت القرار بالمحاولة. فقلت في نفسي لم لا، فهي فرصة لرؤية أخي ومحاولة لاستصدار جواز سفر أردني لي ولأولادي. واتصلت بأخواتي وأخبرتهن بأنني نويت السفر في الخميس القادم 21 حزيران لتكون لي الفرصة لترتيب أموري.

وعندما وصلت أخواتي إلى عمّان أخبروا أقاربنا هناك بأنني أنوي المجيء إلى الأردن وطلبوا منهم المحاولة بالعمل على السماح لي بالدخول إلى الأراضي الأردنية.

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من تموز عام 2012، جهزت معاملة السفر وتوجهت إلى الجسر برفقة ولدي نضال وأختي ليلى وابنها نادر وابنتها حنين، وكلي تخوف من أن تمنعنا سلطات الاحتلال أو السلطات الأردنية من دخول أراضيها. ولكن سلطات الاحتلال لم تتدخل وتمت الإجراءات دون أي تعقيد.

وصلنا إلى عمان وجاء ابن أختي محمود ونقلنا من موقع يسمى طبربور إلى بيت أخي في الرصيفة في إسكان هاشم. وبالمناسبة أخي عبد الله لم يكن على علم بأنني سأحضر إلى عمان لحضور حفل تخرج ابنته. وعندما وصلت إلى بيته لم يكن موجودًا هناك. جاء بعد حوالي ساعتين وكنا على مائدة الطعام نتناول وجبة الغداء. وكانت المفاجأة كبيرة لكلينا.

في عام 1970 كنا معًا، أخي عبد الله وأنا، في سجن الرملة. وجاءت والدتنا العزيزة لزيارتنا. وبعد انتهاء الزيارة التي استمرت لنصف ساعة، عاد كل منا إلى مكانه. وبعد أسبوع تقريبًا على ما أذكر تلقت أمي خبرًا من عمان مفاده أن أخي أبعد إلى هناك. وتبين أن الإبعاد تم مباشرة بعد انتهاء الزيارة، ولم يبلغوا أيًّا منا بقرار الإبعاد، حيث نقلوه إلى وادي عربة. ولم أره منذ ذلك اليوم إلا بعد ثلاثة وعشرين عامًا، أي في عام 1993 وأين؟ في مدينة جنيف السويسرية. حيث شاركت في ذلك الوقت في مؤتمر لحقوق الإنسان وهاتفته، حيث كان يعيش في مدينة الرياض في العربية السعودية وجاء وقابلته هناك.

أخي عبد الله أبو طلال

وها هي المرة الثانية ألتقي به في عمّان بعد حوالي عشرين عامًا. فتخيلوا هذا المنظر المفرح المبكي! فلأول مـــرة نجتمع الأخوة مع بعضنا بعضًا، أخواتي الثـــلاث وأخي عبد الله وأنا منذ عام 1967. وفي نفس الوقت كان غائبًا عنا أخي أبو آدم لعدم قدرته على الســـفر بسبب مرضه. فهو مصاب بفشـــل كلوي ويحتاج إلى غســـيل كلى ثلاث مرات أســـبوعيًّا. فكانت لحظات ســـعيدة ومؤلمة في نفس الوقت. وكذلك خطر على بالي ســـؤال آخر. كم تبقى من عمـــري لأرى أخي للمرة الثالثة؟! فما بين المـــرة والأخرى مر حوالي عشرين عامًا، فيا ترى هل سأعيش عشرين سنة أخرى لأراه مرة ثالثة؟

أنهينا اليوم الأول واليوم الثاني في تبادل الأحاديث والذكريات. وتحدثنا عن الإجراءات للحصول على جوازات الســـفر وشعرت بالتفاؤل. فلأول مرة تفتح دائرة الجوازات أبوابها يوم السبت فكانت فرصة لي لكسب يوم آخر.

وبالفعل توجهت يوم السبت إلى دائرة الجوازات برفقة ابن خالتي حسين المساعيد وبدأنـــا بالإجراءات. قدمنا المعاملة مرفقة بالوثائق اللازمة وبدأت طريق الآلام. فمن

شـــباك إلى شـــباك ومن موظف إلى آخر. وصلنا إلى نتيجة أن مشكلتي لن تحل في دائرة الجوازات ويجب أن أتوجه إلى وزارة الداخلية. والســـبب في ذلك حسبما أفادوا، أنه لا يحق لي أن أحصل على جواز ســـفر لأنه عندما حصل أبي على جواز سفره كنت أنا فوق الســـن القانوني. وهذا لم يكن دقيقًا. وأبـــرزت الأوراق الثبوتية التي تبرهن أنني كنت أقل من الســـن القانوني بثمانية عشر يومًا. إلا أن ذلك لم يُجدِ نفعًا. وبالفعل توجهنا إلى وزارة الداخلية وأعيدت الكرة. وبعـــد معاناة والانتقال من موظف إلى آخر كان الرد أن مشكلتك في دائرة الجوازات وليست هنا. استمر ذلك الحال على مدار أسبوع كامل كنت أصل إلى الدوائر في الساعة الثامنة صباحًا وأغادرها الساعة الثالثة من بعد الظهر.

وفي ساعات المساء كنا نزور الأهل والأقارب، وكانت زيارات فعلًا مؤثرة جدًّا تمزج ما بين الســـعادة والحزن. فزيارتي إلى أخوالي لم أرَ أحدًا منهم، فجميعهم انتقلوا إلى دار الآخرة. قابلت أبناءهم وأحفادهم. أما زوجة خالي، والتي عـــلى ما أعتقد في الثمانينيات من العمر، فقد احتضنني وقبلتني بشـــوق وبلوعة وكأنني طفل حديث الولادة وقالت مما أدمع عيوني: «منيح اللي شفتك وبحمد الله مليون مرة اللي شفتك قبل ما أموت».

بعد ذلك أعدّوا لنا وجبة الغداء، وهي منســـف على الطريقة البدوية، حيث في وســـط الطبـــق وضعوا رأس الذبيحة. بالطبع لم يكن هناك كـــراسي أو طاولات. كان الترتيب على الأرض مبـــاشرة. فالأرض غير مبلطة وترابية وضعوا عليها قطعـــة من النايلون اللاصق. وفوق النايلون اللاصـــق وضعوا قطعة من النايلون الخفيف. وبســـبب الهواء كانت قطعة النايلـــون تتطاير. تخيلوا كيث ثبتوها على الأرض؟! رشـــوا قطرات مـــن الماء على النايلون وفرشـــوه على الأرض فثبتت عليهـــا تمامًا. تناولنا وجبة الغداء وهي منســـف على الطريقة البدوية التي ليس لها مثيل.

إحسان برناوي

أما زيارة إحســان برناوي فلم تكن أقل. فهي من أوائل المناضلات الفلسطينيات، حيث شــاركت أختها فاطمة البرناوي أول أسيرة فلســطينية، في تنفيذ عملية سينما تسيون. إلا أنها اســتطاعت أن تفلت من أيدي العــدو، حيث إن أختها أنعام تقمصت شــخصيتها، وهذا ما ســاعدها ونجحت في الهروب إلى الأردن وكان ذلك في شهر، على ما أذكر، تشرين الأول من عام 1967. وكانت تربط عائلتينا علاقات وطيدة، فمن المستحيل أن يمر يوم دون أن نكون في بيتهم أو يكونوا في بيتنا. فعدنا بالذكريات الجميلة التي عشــناها. ولكن الشيء المدهش كانت الفرصة لرؤية فاطمة البرناوي. فلقد جاءت إلى عمان في طريقها إلى بيروت لحفل تكريم بعض المناضلين تحت اسم الأوائل. وعندما علمنا أنها ستأتي بقينا عند إحسان لملاقاتها في اليوم التالي.

المناضلة فاطمة برناوي

وعندما جاءت إلى بيت أختها نزلت لاستقبالها. في البداية سرت وكأنني لا أعرفها، مررت من جنبها وفتحت باب العمارة دون أن ألتفت إليها. وسمعتها تقول يا الله شو بيشبه ابن خالتي محمود. فنظرت إليها وقلت أنت مين فاطمة؟ واحتضنا بعضنا بعضًا واصطحبتها إلى البيت. وكان ما كان من ذكريات حلوة وجميلة. وللعلم فاطمة تعيش في قطاع غزة. فكما تعلمون الزيارة ما بين الضفة والقطاع مستحيلة.

وكانت هناك زيارة أخرى مؤثرة. ذهبت إلى مخيم اللاجئين المسمى شنللر. وتجولت في أزقته حوالي ساعة ونصف الساعة. في الحقيقة كانت مناظر المخيم مؤلمة جدًّا. قارنت وضعها بوضع المخيمات عندنا، خاصة مخيم الدهيشة الذي أزوره كثيرًا. شعرت أنني عندما أكون في مخيم الدهيشة كأنني في جنيف أو فيينا مقارنة بذلك المخيم. البيوت في حالة مزرية جدًّا عبارة عن صفوف من الطوب والأسطح من تنك، يوضع فوقها حجارة أو إطارات سيارات لتحميها من التطاير. الحيوانات تعيش معهم في نفس البيت. الأولاد بكثرة في الشوارع. القمامة في الشوارع ولا توجد حاويات. شاهدت الأطفال في كل صباح يأتون إلى أكوام النفايات ويبحثون عما تيسر من احتياجات لهم. والحوانيت عبارة عن سيارات متنقلة. هذه تحمل الخضرة وتلك تحمل الغاز وأخرى تحمل الملبوسات وهات يا زمامير طوال النهار. وتحرق الزبالة في وسط المخيم أحيانًا وتخيلوا الدخان في ذلك الوقت كيف يغطي المخيم ويتسلل إلى البيوت. يا لها من عيشة.

مخيم شنللر

ولكن الزيارة الأكثر تأثيرًا، كانت زيارة رفيق دربي ورفيق حياتي بشـــير إبراهيم جبريل. فهذا الشـــخص قضينا طفولتنا معًا. ذهبنا إلى نفس المدرســـة وفي نفس الصف. ومارســـنا الرياضة معًا، ســـواء المشي أو الجري وكرة القدم والسلة. وكذلك الكشاف في مدرسة عبد الله بن الحسين وتبادل العزف على آلتي الكلارينت والساكسفون. انقطعت أخباره عني عام 1978. ومنـــذ ذلك الوقت وأنا أبحث عن أخباره ومكان تواجده، ولكن لم يســـعفني أحد ويطلعني على بعض من أخباره. ففي عام 1967 بعد الاحتلال الإسرائيلي اشـــتركنا ســـوية وبالشراكة مع طلبة آخرين، في تأســـيس اتحاد الطلبة الأول تحت الاحتلال وحرضنا الطلبة والأساتذة على مقاطعة المدارس، لأن الاحتلال في ذلك الوقت أصدر أمرًا عسكريًّا بموجبه منع تداول الكتب الأردنية وفـــرض المنهاج الإسرائيلي علينا.. وبعد ذلك انتمينا إلى العمل الفدائي. ولكن هو غادر إلى الأردن من أجل التدرب على الســـلاح وبقيت أنا هنا. وحصل فيما بعد أنني اعتقلت. واســـتمر هو في العمل الفدائي ووصـــل إلى مراتب عليا في صفوف الجبهة الشعبية وكان، كما علمت من بعض الرفاق، الساعد الأيمن للرفيق وديع حداد.

بذلـــت جهدًا كبيرًا وأنا أبحث عنه، وفي النهاية اســـتطعت أن أصـــل إليه. وقفت أمامه نتذكر كل تلك الأحداث التي عشـــناها معًا زمن الطفولة حتـــى اللحظة التي فرقت بيننا. أتذكر ابتساماته التي لا تتوقف ونكاته الجميلة وحسن خلقه. وقفت أمام شاهد قبره أتذكر كل هذه الأحداث إلى أن وصلت إلى عام 1978، حيث استطاعت قوى الغدر الصهيونية أن تصل إليه وتغتاله على أرض أثينا في اليونان. حدث ذلك في 18/ 8/ 1978.

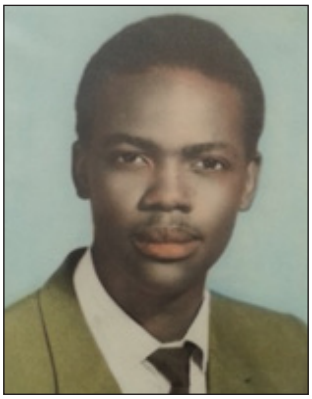

صورة وضريح الشهيد بشير إبراهيم جبريل

بعـــد العودة إلى القدس، اســـتشرت الكثير من الأصدقاء والمعـــارف ولكن لم نصل إلى نتيجة يمكن تؤدي إلى حصولي على جواز ســـفر أردني. وأخيرًا ذهبت إلى المحكمة الشرعية وأبرزت كل الأوراق التي بحوزتي، وكانـــت النتيجة مكانك عُدْ. أي لا شيء يمكن فعله. فكما فهمت نعامل نحن كالغرباء ولسنا أولاد بلد، كما يقال. فكون أبي من جذور إفريقية فلا يحق لي التجنس مباشرة كما يحصل مع أبناء البلد. ونحن هنا في مأزق حقيقي لم أحلم به قط. فإمكانية الحصول على جواز فلســـطيني غير واردة. فنحن سكان القدس ممنوعون من ذلك لأســـباب وطنية. وإذا حصلت على جواز سفر أجنبي فهذا سبب كاف لسلطات الاحتلال لإبعادي عن القدس ولربما عن فلسطين بكاملها. فما العمل؟!

ســـؤالي الآن: هل الانتماء بحاجة إلى فرمـــان من أحد، كائنًا مـــن كان؟ قناعتي بالطبع لا. لأن تجربـــة حياتي تقول إن الانتماء إلى مكان ما أو لشـــعب ما أو لفكرة ما أو للإنســـانية ليست بحاجة لفرمان من أحد. فهذا شعور إنساني يمارسه الإنسان بقناعة تامة وبإرادة قوية وبإصرار كبير، ولا يحتاج إلى فرمان سلطاني أو مرسوم رئاسي أو مكرمة ملكية.